محمود درويش

قراءة في قصيدة الأوراس

د. نواف أبو ساري

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات

جامعة منتوري، قسنطينة.

ملخص

الأوراس واقع ورمز، هو ثورة، هو تاريخ وجغرافيا وشعب. لخص الأوراس الحدث العظيم في نوفمبر المجيد وانتصر رغم كل المحن والصعاب والمؤامرات. استلهم الشاعر محمود درويش ملحمة الأوراس والثورة الجزائرية الكبرى والتضحيات الجسام فأبدع قصيدته الأوراس التي نقرأها في هذا المقال.

Résumé :

L'Aurès, réalité et symbole. C'est une révolution, une histoire, une géographie et un peuple. L'Aurès symbolise le grand événement de novembre glorieux. Le poète Mahmoud Darwiche s'inspira de la grande épopée de L'Aurès de la grande révolution Algérienne et des grands sacrifices humains.

De là il réalise son poème intitulé « L'Aurès » qui fait l'objet de cet article.

أجاب محمود درويش عن نفسه و عن نسبه وعن شعره فقال:

أنا من قرية عزلاء منسية شوارعها بلا أسماء و كل رجالها في الحقل و المحجر[1] كم هم بسطاء أولئك الرجال الذين ينتسب إليهم الشاعر و كم يعانون من الإرهاق و القهر، هو فعلا من قرية عزلاء و منسية ولد ي قرية مغمورة لا شوارع فيها، قرية القهر في الجليل الفلسطيني كل سكانها في الزراعة و المحاجر، وهو من أسرة فلاحية تعيش في الأرض و للأرض، و منها اكتسب سكان قريته مزايا الآباء و الكرامة الفلاحية، جدي كان فلاحا بلا حسب و لا نسب[2] جده هو صاحب الأرض و حارسها . إن الأرض هي نوع من عباءة جده الذي دمر قلبه عندما نهبوا أرضه وقف على سياج يطل على أرضه فانفجر قلبه و مات غيظا[3] فالأرض عنده لم تكن من تراب بل هي وعاء لهوية و جسد و روح،لذلك فالدفاع عنها يكون دائما في الأدب الفلسطيني القضية الجوهرية في الصراع.

كان الصراع مع المغتصب و مازال يدور حول ارتباط الأرض بصاحبها الذي لاتحده حدود الزمان، فهي ضد الرحيل و ضد البعد عنها مهما كان الثمن و مهما تنوعت دوافعه و أسبابه رمزيا كانت أم تراثيا أم دينيا أم حسيا.

إنا جذور لا تعيش بغير أرض

ولتكن أرضي قيامة[4]

ولد درويش مع بداية الآلام المتتابعة بقرية عزلاء منسية تدعى البروة في 13 مارس 1941، تقع قريته على هضبة خضراء ينبسط أمامها لإلى الغرب سهل عكا المثمر الشهور و يعتبر الامتداد الشمالي لسهل مرج بن عامر. وعن بداية محاولاته الشعرية جاء في ديوانه " يوميات الحزن العادي" فقال: "كتبت الشعر في سن مبكرة كنت تلميذا في المدرسة الابتدائية، و طلب مني أن ألقي قصيدة دافعت فيها عن الوجود الفلسطيني في فلسطين و هاجمت القهر الإسرائيلي و كما هو متوقع تعرضت للأول عملية ضغط و تهديد و كان علي يومها أن أختار بين الصمت و بين الشعر و اخترت الشعر،

بما يترتب عليه من مسؤولية، و مبارحة لعهد الأمان و الطمأنينة، فالشعر ليس لعبة– إنه رهان مكلف– مع أنه ليس مضمون النتيجة،

اخترت الشعر ليس فقط بالمعنى السياسي ..فالرهان أكبر أنني وظفت كل مساري و تجربتي و معرفتي و طاقتي لصالح الشعر[5] "أغنية الصمود" تترجم ذلك: و فيها يتجلى لنا الموقف بوضوح معنى الالتزام بالقضية التي آمن بها الشاعر منذ طفولته، الواعية وهو يعلم أن عليه أن يودع الوداعة و الأمن حين أحب الأرض، وارتبط بغرسها، و أنسا لها رغم المخاطر المطبقة. فما عليه إلا أن يقاوم، و ليس أمامه العزم و الإرادة و هذه أنشودته:

لو يذكر الزيتون غارسه لصار الزيت دمعا

فإلا م تصغ السمع للخطباء و النيران جوعا

إنا سنقلع بالرموش الشوك و الأحزان قلعا

سنظل في الزيتون خضرته و حول الأرض درعا[6]

و باعتقادنا أنه قد رأى منذ البداية ثقل الرسالة التي وجب عليه حملها ، إنها تشكل مجموعة من القضايا، تتجاوب مباشرة مع الوعي الاجتماعي لجمهوره تحت الاحتلال، و من المعروف أن الشرط الأساسي لنجاح نتاج الشاعر هو ظهور مسألة من مسائل المجتمع و الوطن لا يتصور حلها إلا بإسهام الشعر في حلها، أي يصبح للشعر غاية

واضحة المعالم بواقعية محددة بحدود المسائل المطروحة، و القضية هنا هي الوطن و اغتصاب الحقوق. إن موقفه المشار إليه آنفا قد أوضح من خلال التجربة أنه لم يكن منطويا على نفسه بل كان وعيه مرآة لأحوال مجتمعه و أمته و ما يشغله

من أمور عظام ذات بعد مفصلي في حياته الواعدة، حيث سيقاتل بالكلمة الشاعرة على طريقته في قصيدته:

" تحد "

شدوا وثاقي وامنعوا عني الدفاتر

مليون عصفور على ألحان قلبي

يخلق اللحن المقاتل.[7]

و كان يسخر من سجنه، فيقول مداعبا أو جادا،:"السجن الأول مثل الحب الأول لاينسى" رغم أنه كان بلا محاكمة. و استمر الحال على هذا المنوال حيث توالت الاعتقالات و الاتهامات و الزجر له و لكثيرين من إخوانه، مرة بتهمة القتل أو بالتحريض أو بالسرقة ، فاحتج بلسانهم وبلسانه متمردا صارخا في وجه سجانه.

يا دامي العينين و الكفين

إن الليل زائل

لا غرفة التوقيف باقية

و لا زرد السلاسل[8]

هذا وعبر درويش في دواوينه الشعرية و مقالاته النقدية ما ستطاع عن قضيته بصدق و عمق كبيرين و شاعرية فريدة، و ذلك من خلال قدراته الفنية و موهبته و عمق تجربته مع المعاناة فأبدع جملة من الأعمال شملت محاور ثلاث: الوطن و الثورة القومية، و الأرض و الإنسان العربي، الإنسانية و قضاياها. لقد كان سجلا كاملا للقضية الفلسطينية وللقضية العربية في اليمن و في لبنان و في الجزائر و في ليبيا و العراق و للقضية الإنسانية في الفيتنام و كوبا و إفريقيا وإسبانيا و الأندلس و اليونان و بلاد الإغريق القدامى و غيرها، و كل هذه القضايا كانت المحاور الرئيسية لشعره عبر دواوينه ابتداء من "عصافير بلا أجنحة"1960، حيث لمع اسمه مع هذا الديوان و توالت الاحتفالات به خلال المؤتمرات و المهرجانات الأدبية و الشعرية المحلية و الإقليمية و الدولية.

<u>قصيدة الأوراس</u>

إن تناولنا لهذه القصيدة هو محاولة لفك رموزها، لأنها من بواكير إبداعه الشعري و لا يخفى أن الشاعر قد مر بمراحل تطورت من خلالها أدواته الفنية، و لذلك جاءت قصيدته الأوراس تجمع بين البساطة في جل معانيها و بين الرموز التي يتكئ فيها على معطيات تاريخية أو حضارية أو فكرية بنظرة الشاعر و خياله الساحر. و سأشير إليها لاحقا.

و تجدر الإشارة هنا أن الأستاذ الدكتور عبد الله الركيبي و هو الأديب الناقد و الدبلوماسي المعروف، قد نشر كتابا ضمن سلسلة الدراسات الكبرى بعنوان الأوراس في الشعر العربي.. و دراسات أخرى، صدرت عن الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر،1982. استعرض أستاذنا الفاضل في كتابه هذا بواكير

الشعر العربي العام الذي واكب ثورة التحرير الكبرى منذ انطلاقتها. إلا أن قصيدة محمود درويش هذه على شهرتها قد سقطت من هذا الكتاب الهام و هي تحمل عنوانه.

و كان الأجدر أن تتصدره. و وجدنا أن القصيدة قد نشرت في ديوان الشاعر الأكثر شهرة ألا و هو "أوراق الزيتون" الصادر عام 1964. و نفهم من مقدمة هذا الديوان مدى التزامه بقضايا الوطن و الأمة و الإنسان العربي الذي يفتخر دائما

بانتسابه إليه، و ذلك في قوله "تشيع في جو الديوان رائحة الريف و آلام الناس و التغني بالأرض و الوطن و الكفاح و الإصرار على الأمر الواقع.....و محاولة العثور على مبرر لصمود الإنسان أمام العذاب،،. ولم تتح لنا الفرصة لتبيين

سبب إغفال القصيدة من الكتاب الهام للدكتور عبد الله الركيبي " الأوراس في الشعر العربي"، لذا كان واجبا أدبيا و قوميا أن نستعرض هذه القصيدة في قراءة خاصة، لما تحمله من هم و ألم و فن وإبداع، وصدق وت ضحية، أمام هول ما تعرض له الأوراس الأشم. و هي لوحة تسجيلية لحوادث كبرى عاشها شعبنا المجاهد خلال ثورة التحرير.

و قبل القصيدة ..لابد من القول، أن درويش قد عبر بأشعاره و مقالاته النقدية ما استطاع عن قضيته فلسطين بصدق فدائي، و تجربة ناقد، و ذلك من خلال مخزون موهبته الذاتية. تحدث عن ثورات العالم و هموم الإنسان في حريته المصادرة دون وجه حق، صادرها المستعمر و التجار و سماسرة العبيد في أفريقيا، حيث كانت غابة و خشبا وعبيدا تنهب كل يوم، و يستبد بها و بأهلها. و برأي الشاعر فإن اليأس لم يعرف طريقه إلى الإنسان الجديد في الأقطار التي أحبها ففي قصيدته، "عن الأمنيات"[9] نجد التلاحم الأبدي بين الإنسان و الحرية. وقد خاطب أخاه الإفريقي في قصيدته "نار محبتي في إفريقيا" و كتب تحت عنوانها.. تحية حب إلى كل ثائر إفريقي.

يا أخي الثائر من أجل الكرامة فارسا شد إلى الفجر لثامه

لم تعد إفريقيا حاناتهم و بها لن ينصب الليل خيامه[10]

وفي هذه الحالة نجد أن محمود درويش يذكر أخاه الإفريقي بأنه مصاب مثله، حين يشاركه القسم حتى يبلغ الهدف في البعث الجديد.

نحن أقسمنا على البعث معا يا أخي لن يبلغ الغرب مرامه

لي في إفريقيا نار محبة و بآسيا يا صاح حمامة[11]

و الحمامة هنا هي فلسطين رمز السلام المذبوح.

أما كوبا، جزيرة الحرية، هذه الحسناء المنفية في بلادها المحاصرة منذ ذلك التاريخ، يوم انتصرت ثورة عبيد الأرض ضد أسياد الإقطاع السياسي، لقد كانت لها عند الشاعر مكانة تلاءم تماما ظلم الحصار و همجية التنكيل الذي عاشته بلاده و وطنه العربي في تلك المرحلة التاريخية من مراحل التحرير الوطني. ففي أناشيد كوبية يقول في المقدمة:

و نشيد الثورة لحن.. تعرفه كل الأجراس

و الراية في كوبا..يرفعها نفس الثائر في الأوراس[12]

هكذا كانت كوبا.. فتاة صغيرة حافية القدمين، و لكنها جميلة يافعة، و لذلك كانت مستغلة، كانت كوبا سوقا لتجار غرباء يستغلون عرق أبناءها، و يسرقون جهودهم و ينتهكون شرفهم عنوة. كانت كوبا ساحة متعة لهم في رحلات سمرهم و سكرهم و ثرائهم. و لما اشتد عود أبنائها، اشتعلت نارا تحت أقدام و رؤوس مستغليها، و قدمت أبناءها راضية ثمنا لعاصفة مرت يوما عليها اسمها معركة تحرير كوبا من جلاديها، فأصبحت جزيرة الحرية. و في هذه الحالة يصبح التساؤل شرعيا. إذ كيف لشاعر مناضل كدرويش يقف إلى جانب إخوته في الإنسانية في كوبا وإفريقيا و فيتنام و في كل المواقع التي يتعرض بها الإنسان للاضطهاد و القهر و لا يقف شامخا محتجا رافع الرأس مع قضاياه و قضايا الأمة التي شرف بالانتساب إليها و هنا تأتي الأوراس القصيدة.[13]

قراءة في قصيدة الأوراس . لماذا الأوراس؟ الأوراس واقع و رمز، و لماذا الرمز في أرض الواقع؟ عندما يذكر الرواة عظمة الأمم يقرنون ذلك بأحداث أو مواقع أو عمران. فالصين قرنت بسورها العظيم، و رمزها الخالد الذي قاوم السنين

الطوال ما استطاع، و ما زال بامتداده مهيبا عامرا بالناس هو كالشيخ الجليل يحكي حكايته و عجائبه و نضالات من ساروا عليه مع الزمن الطويل وما زالت بلاد الفراعنة تفخر بماضيها، و بما خصها التاريخ من مجد المدنية و عبقرية العمران. وحين نذكر بلاد الإغريق القديمة من لا يقف مسرعا مأخوذا بالإعجاب من جبل الاولمب و هو يطل على بملاعبه و مسارحه و هياكله و ساحاته على مدينة "أثينا" الجميلة الهاجعة، وفي رحمها خلاصة تاريخ الإنسانية

منذ أن أبدعت الأدب و الفكر و الفن والملحمة و الفلسفة و المسرحية، و في الآلهة و أنصاف الآلهة و الأبطال و الأحداث العجيبة و الصراع الدائم بين الفضيلة و الرذيلة و بين الخير و الشر.تلك الوقفات العابرة تجعلنا نتوقف قليلا على ضفاف بلاد الرافدين. من لا يذكر مملكة بابل، و مملكة آشور و عظمة سومر وعمران نينوى و من نسي حم ورابي و نبوحذ نصر و سرجون . أولئك العظماء الذين جسدوا رمز البطولة في تاريخ الزمن البعيد. لقد كشفوا بالعبقرية ذاتها خطوط حظوظهم في التاريخ بالأحداث حين شيدوا مع الملكة "سميراميس" حدائق بابل المعلقة لتصبح منارة الدنيا في عجائب الزمان . هذه لمحات عابرة مع ذكريات بعض الأمم مع أحداثها .إنها تنشط مواطن الذاكرة و تحيي أحلام العبقرية عند أصحابها، و لكن التاريخ يمضي إلى زماننا فيكتشف ما نحن فاعلون أمام هول المآسي التي نعانيها. فحين نذكر الأوطان و الأزمان نقبض على الجمر. نجد الأوطان متهاوية و الأزمان متآكلة فلا بغداد نمجدها و لا الأقصى نحميه ولا الحدود نحرسها....

و نحن نغني القدس

يا أطفال بابل

ستعودون إلى القدس قريبا

و قريبا تكبرون

و قريبا يصبح القمح من ذاكرة الماضي

قريبا يصبح القمح سنابل

آه يا أطفال بابل

ستعودون إلى القدس قريبا و قريبا تكبرون [14]

عندها يلفنا الدوران بغثيان الضياع و الصداع المزمن بعد مراجعة أنفسنا وجدنا أننا لحالنا و ضعنا فيه. و ضاعت بين سطور الأحداث التي لا تعي الهوية و المصير. فأصابنا عماء البصيرة من يدنا المغلولة القصيرة. و من بين الظلام نشد خيطا من ظلمة الليل و نتحدى سكونه الطويل.

و ماذا يعني الأوراس...؟ و لماذا تشكل الأرض محور حدث خاص و صورة خاصة؟ و لماذا يتشبث الإنسان بوطن و بشجر و بصخر أو بحالة ما و يموت من أجل ذلك؟ هل هو التاريخ؟ أم الجغرافيا أم ماذا؟

إنها أسئلة تتخذ أشكالا متعددة واضحة أحيانا و أحيانا مبهمة فيكتشف من يحاول أن يفهم أنه يرسم صورا جميلة أو متوحشة واقعية أو رمزية ثم يكتشف فعلا أن الأرض التي يحبها هي جزء من جغرافية جسده النحيل و في سمرته

لون الأرض و الوطن فهو عاشق صوفي متوهج الدلالة، ملتحم بالثرى القدسي، خرج من عذريته الأولى ذلك الطود الشامخ الأوراس الذي يشرف على الوطن منذ القديم إلى أن توالت أحداث و أزمان واكبت الاغتصاب الحق على مسرح الأفق الدامي الجديد.

هل هو خلاصة رصاصة الثورة الأولى التي سجلت بدويها تلك الليلة عظمة الحدث ؟ و الحدث ثورة، أم سجلت جلال المكان؟ و المكان جغرافيا...أم سجلت أبعاد الحدث و جلال المكان؟ و أي ثورة هي؟ إنها ثورة أول نوفمبر...ملحمة الشعب الجزائري ضد مغتصبي أرضه و تاريخه وجغرافيته فالأوراس هو المكان و الشعب والتاريخ و الثورة ...إنه الوطن.تمتد الأرض مهما تمتد و لكنها تعود لأحضان الأب الصابر والجد المهاب الذي اختصر المسافات و لخص الهضاب والجبال و عمق الأودية حين ضحت كل المشاهد العامة من جرم الغاصب، فثار الأب يستنهض الهمم العاتية لماذا الأوراس؟ هل هو مصدر الجبروت؟ أم مصدر التحدي؟ هل هو الذاكرة؟ أم الوجدان الشاعري المحلق؟ إنه كل ذلك...و أمام كل هذه التساؤلات و الفرضيات من المكابرة أنني لا أشعر بعذاب نفسي و خوف حين أقدم على قراءة قصيدة ذات بعد ملحمي متعدد الجوانب عنوانها "الأوراس" .فيها أبطال ثلاثة جغرافيا و تاريخ و شعب، قدم شهداء ما توانوا لحظة عن التضحية بأرواحهم الزكية الطاهرة فداء الوطن الذي سرق منهم في غفلة من الزمن ..شعر بخوف إذا لم أقدم قضية القصيدة كاملة. و ليس هناك من ضير لو سألنا..من سرق هذا الوطن؟ فالسارق هنا هو الغادر المهزوم و إنه الاستعمار الفرنسي. و لو قرأنا ما في صدورنا حين نبحث سنجد أننا لم نتخيل هذا الوطن في حلم أسطوري، و لم نقرأه في صفحة جميلة من كتاب قديم هو صنعنا و قد آمنا بحبه بلا تحفظ. وما دام أمره فينا كذلك... أعلنها المقاتل و الفدائي ضد سارق وطنه مؤمنا حين خاطب أمه.

آمنت يا أماه بالغد ...و بالكفاح

آمنت بالزيتون و النوار...يسم باتياح

آمنت بالجرح الذي شد الجراح إلى الجراح

آمنت أن أنصب بين يديك في نهر الصباح [15]

نحن لسنا أمام الاختيار لنختار لنا وطنا..لقد وجدنا أنفسنا نبضا من هذا الوطن و من لحمه ومن نخاعه لذا فهو لنا و علينا فداؤه.و وفق هذه الرؤية..نرى أن الشاعر قد قسم قصيدته حسب رؤيتنا إلى محاور أربع كل محور مقسم إلى أربع أجزاء أو عناصر تكون مع غيرها الصورة الكلية لقصيدة الأوراس...

المحور الأول..يمكننا أن نطلق عليه..مسرح المأساة

أما الجزء الأول فهو...الفاجعة

بيتي على الأوراس كان مباحا يستصرخ الدنيا مساء صباحا

و تراب أرضي من دمي معشوشب كي يشرب الغرباء منه الراحا

إنها صيحة بل صرخة بلغة متفجرة غاضبة بأشكال متعددة تشكل حقا عمق المأساة و أبعاد الظلم و التردي الأخلاقي، وإلغاء وجود صاحب الحق في الأرض و الوطن و الانتماء، و في الحقيقة انه اغتصاب فاضح و إباحة مستهترة بكل القيم... و لا نجد مسمعا يصغي إلينا و البيت مباح والأرض مصادرة و الصراخ يسمع الدنيا و لا مجيب.يشرب الغرباء الغاصبون القادمون من بعيد نخب انتصارهم على أرض سقيت و ارتوت بطهارتها.

أقداحهم عظمات حد ثائر قتلوه و التقتيل كان مباحا

و تقيأت باريس كل ذئابها لتمدد المتوحش الفلاحا

لا باس إن جاعت بنية عامل فالجوع أحلى نعمة و سماحا

يا للهول ...هذه جماجم الأجداد الثوار و عظامهم أصبحت أقداحا لهم يشربون نخب انتصارهم و عربدهم إنهم سكارى يهزءون حين أفرغوا ساحات الوطن منهم، الأهم الذاكرة و الامتداد فذهبوا ببقاياهم حين العجب. لقد نكلوا بهم وبسلالتهم حتى لا يذكرون. لذا تقيأت "باريس " رمز الحضارة الغربية شر تلك الحضارة وأطلقت ذئاب الليل تنهش الأعراض و تسلب الأرواح و الأرزاق. فاغتصبوا قوت ابن الأرض و عاشقها ذاك الفلاح المتجذر في أعماقها منذ الأزل بل ذهبوا أبعد من ذلك حين قطعوا

الأعناق بمقاصلهم اللعينة، و مثلوا بأجساد الشهداء . هذه الإنسانية المتوحشة هي التي أبت على نفسها إلا أن تقف سدا أمام إنسانية جديدة واعدة تمثلها بنية ذاك العامل المكافح الدائب على توفير ما يمكن لسد رمق أبناءه الذين ينتظرون جهد والدهم ليقتل جهد أمعاءهم..ولكن مغتصبي البلاد و مشردي أبناءه تأخذهم نشوة الانتصار و أي انتصار ذلك حينما يرون أجيالا تعاني قلة الغذاء و قصر ذات اليد، فالعدو يتلذذ سعيدا بانتصاره الرخيص بشقاء الآخرين . و من المعرف و الثابت تاريخيا أن الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1930 كانت أهم طلائعه المقاتلة و المدربة جيدا كانت تضم بين صفوفها مجاميع من مشردي فرنسا أولئك الذين لا دين لهم سوى العدوانية و سفك دماء غيرهم تجمعهم الجريمة و لا تفرق بينهم.

الجزء الثالث...الدعارة

لا بأس إن ماتت لتحيا مومس فالجوع أحلى نعمة وسماحا

سوزان تصبغ من دمانا ثغرها حتى يظل ثغرها فواحا

حتى تظل شفاها ياقوتة لم لا يكون صباغها أرواحا؟

و كما نلاحظ بوضوح نجد التزوير و التلفيق و الدعارة و بأي ثمن ..أجساد وأشلاء تقام عليها الأفراح..و ليالي السهر و ذلك حين تزهو سوزان القادمة من البعيد تحمل الخنجر المسموم، و تلطخ بدماء الشهداء الطاهرة مواضع جمالها ..

هي نفسها تفوح من مكامنها رائحة الجريمة وزرهق الأرواح البريئة.... إنها فرنسا الوفية لمبادئ الخسة في مصادرة حق الحياة وقبضالأرواح تتباهى أمام الكون بأصباغها وتزييف شخصيتها وتدعي أنها ياقوتة تلمع فتسحر العين حين تراها. ولم يسأل أحد عن ثمن هذه الأصباغ الكريهة الملوثة... وكم هي الأرواح التي اختطفت فجأة... زكانت آمنة مطمئنة في ديارها... انها أرواح أبناء هذا الشعب وفلذات أكباده هجمت عليهم المكيدة بليل دامس، ولكن صبرهم إلى حين. تحركت أحاسيس الأحرار من أبناء الأمة ضد المأساة العامة التي شملت أرجاء الوطن المفدى، فكان للجزائر أثر ذلك مكانتها المحفورة في الذاكرة الجماعية للإنسانية المعاصرة. مكانة الوطن الذبيح في قدرها مع جلاديها ولم تكن الوحيدة في هذا القدر القاسي وتلك المؤامرة المدمرة التي حبكها الأقوياء في غفلة من الزمن وغفوة من التاريخ. لقد عبر درويش الشاعر الثائر عن عواطفه وانفعاله وثورته في هذا الخصم وهذا المستنقع بأسلوب المحب إلى الحبيب، حين كانت دماء أقرباءه تسفك بلا حساب، تجلى بعض ذلك في قصيدة أخرى بعنوان " عناقيد الضياء" وكتب تحت العنوان... تحية حب إلى الجزائر

يا نسورا حلقت فوق الجبال

تحرس الكرم من اليل ... ومن ذئب الليالي

يا نسورا بعضها قصت جناحيها أياد أجنبية

في السماء المغربية

لفظة الموت حياة في الشفاه العربية 16

أرض غمرها الخير بالمنح الأهلية مكشوفة للعيان إلا أن غرسها وخيرها تحولا إلى نقمة استغلها الغازي الذي سفك الدماء بلا رقيب أنساني أو ذاتي. فسرق الخيرات وابتز الأرض لذا تحول السقي فيها إلى فداء من دماء أبنائها فأينعت غرسا جديدا. نبت في الطل رغم الجراح والآلام، وتشكل إلى عناقيد غضب ونور وحرية. تجلى ذلك الوقت في وحدة هدف أبنائها نحو ترسيخ مجدها بمضاء الصابرين. ما أعزها تلك الكروم الخضراء التي تغطي جبال الجزائر ... وهي تنبت نباتا آخر إنها تنبت الأبطال. هؤلاء النسور الذين يحلقون في سماء الوطن من عل، يحمون اخضرارا، الأرض والسلام من ظلام المعتدين أعداء الحرية. هذه الذئاب البشرية التي حملت معها جهنمهما لتوأد مصادرة القوة في السماء المغربية. وكانت ضريبة الحرية غالية فالمستعمر لا يعرف سوى لغة القتل والتدمير. إلا أنّ الشهادة لطلاب الحرية

لحنا يغنى ونغما تردده الشفاه العربية. وقد آمن الشاعر بمفهومه هذا أيما إيمان فهو القائل على لسان أحدهم...

حملت صوتك في قلبي وأوردتي فما عليك إذا فارقت معركتي

آمنت بالحرب نارا... لا يضير إذا كنت الرماد أنا ... أو كان طاغيتي

فان سقطت وكفي رافع علمي سيكتب الناس فوق ... القبر

،،...لم يمت .....،،. 17

الأوراس – المحور الثاني ..... كشفت ممارسة الاستعمار

الجزء الأول ..... الصمود والتضحية .....

أنا في ترابك يا جزائر عفرت مرغت المشاعر

وحزنت أمسك كله

ووعيت تاريخ المجازر

أنا قبلما أعطيتني نور الحياة ... ولدت ثائر

لو تسألين الصخر والغابات والسفح المكابر

لو تسألين الساحل المذبوح والشط المهاجر

لو تسألين ذراع طفل علقوه على الخناجر

لو تسألون حذاء جندي يدق على الحرائر

بقرت حراب النذل بطن الحاملات

وظل حائر

إن تساؤلات الشاعر كلها تؤكد على بشاشة الممارسات الاستعمارية التي تجاوزت كل الأوصاف. ومع هذا بقي المستعمر حائرا لأن الشعب لم يستسلم أمام الجبروت الهمجي للطغاة. فالجانب التصويري في هذا المقطع يرقى بالصورة الشعرية إلى مستوى ذوبان الشاعر في القضية التي يعالجها من تصوير

جسده معرفا بتراب الأرض الجزائرية. وكأنه يتحد كليا معها، وتأكيدا لذلك الشاعر "أن هذه الأرض تمتص جلد الشهداء " و "تعد الصيف بقمح وكواكب"

فاعبديها

نحن في أحشائها ملح وماء

وعلى أحضانها جرح يحارب 18

وهناك دلالة أخرى معروفة لدى العامة وفي التراث، وهي أن الغائب عن الوطن حين يعود إليه بعد قهر أو غربة أو منفى، يلثم ترابه ويمرغ وجهه بتراب الوطن الطاهر. دلالة على التوحد والوجد بين الذات والوطن. والتأكد على أنّ الشاعر قد تلاحمت مشاعره حتى تخاله وهو يتحدث أنه قد اتحد مع أخيه الجزائري في المولود والانتماء نلمس ذلك بوضوح في قوله ...

أقربائي ...

في دمي كنتم ومازلتم حكايات جهاد

وينابيع من النور ونارا في رمادي 19

– الجزء الثاني .... الصمود

فالوحش يقتل ثائرا ... والأرض تنبت ألف ثائر

يا كبرياء الجرح/ لو متنا لحاربت المقابر

طالما يغزو الوحش قرانا الآمنة المنتشرة عبر ربوع الوطن، فيقتل هذا ويغتال ذاك ولكن الأرض هذه الأم الحنون تنبت ألف ثائر. ولا تعرف العقم فهي أم ولودة فمهما بلغ عدد شهداء الأمة لن تعرف الثورة توقفا أو بطءا وإن عز وجود المجاهدين ستنهض المقابر ويصرخ حينها المغتال والمكلوم ... يا كبرياء الجرح لو متنا لحاربت المقابر ...

وليس من تعليق لدينا على هذا الأبداع الذي بلغ ذروة التفاعل الوجداني والروحي والتحدي المطلق. في نفس الوقت يبين بوضوح إيمان عظمة الأمة حين تصر على بلوغ أهدافها كان حجم التضحية وعدد الشهداء.

وكان الشاعر دائما يتحدى ويتفاعل ويتفاءل. ... ونجد المعنى السابق في مناسبة أخرى، عن زوال المحتل والمستعمر والسجن و السجان، حين يصل الصمود ذروة التعالي

لا غرفة التوقيف باقية

ولا زرد السلاسل

نيرون مات زرد ولم تمت روما

بعينيها تقاتل

وحبوب سنبلة تجف

ستملأ الوادي سنابل 20

يتبع الجزء الثاني ... الصمود ...

فملاحم الدم في ترابك ما لها فينا أواخر

حتى يعود القمح للفلاح يرقص في البيادر

ويغرد العصفور حين يشاء في عرس الأزهار

والشمس تشرق كل يوم في المواعيد البواكر

يرسم الشاعر في هذا المقطع صورة الجزائر الجميلة التي تشخصها ملاحم الدم فتبدو أجمل وأبهى. تنعم بالاستقلال والحرية ... هذه الحرية تنبت في مناخاتها سنابل القمح ترقص في البيادر. وتغاريد العصافير في أعراس الأزهار تفوح عقبا وطيبا ترضعها الشمس كل صباح في اشراقاتها. تلك هي صورة الجزائر التي تخيلها درويش بعد أن مهرها الشعب بالشهداء ...

– الأوراس– المحور الثالث

الجزء الأول ... عمق الفاجعة

بيتي على الأوراس كان مباحا يستصرخ الدنيا مساء صباحا

هو مسرح القضية أو الازمة وذلك عن طريق تكرار التصوير وتعميق مدلولات الجروح والفواجع الأولى التي نحتت في الذاكرة والوجدان العام.

الجزء الثاني ... علم الجزائر من مهج القلوب ...

شعبي بلا علم يصلي تحته يسع السماء مرفرفا ... لواحا

لكن في مهج القلوب خيوطه مغروسة تلذ الغد الوضاحا

تستجمع الماضي تلملم شمله بعد المخاض وتفسح السفاحا

فبغير كف بالدما حناؤها لم نلق في باب الغد المفتاحا

وبغير زيت دمائنا ما نورت حرية كنالها مصباحا

إن العلم الوطني من رموز السيادة لأية أمة، لذا منع المستعمر الفرنسي العلم الجزائري منأن يظهر أو يرفرف خفاقا حرا. لقد فاته أن فضاءات العلم هي مهج القلوب. وأن خيوطه مغروسة فيها. فهو يتحدى بهذا المعنى ... منع المستعمر ظهور العلم الذي يرهب الغازي ويثبت معنى الذات وديمومة وجودها ويؤكد في نفس الوقت أن هذا العلم سيرتفع خفاقا طال الزمان أم قصر في سماء الجزائر بالتضحيات الجسام والبذل اللامتناهي ... من منطلق ... نموت ... نموت ويحيا الوطن.... .

– الجزء الثالث ... أثر الثورة الجزائرية في تحرير شعوب افريقيا

إنا منحنا للشموس ضياءها ولكل من طلب الصعود جناحا

إنا فتحنا الباب في افريقيا فتطايرت شهب اللهب وماحا

وتمرد الزنجي يحمل فأسه ليسل ريح الليل والأرواحا

فعلى ضفيرة كل غصن نائم لي طائر ... كسر السكون صياحا

لقد قدمت الثورة الجزائرية للحرية مفهوما ذا معنى خاص ... وهي أنها لا يمكن أن توهب وإنما تفدى بالدماء. ومن هذا المنطلق منحت الثورة الجزائرية شعوب افريقيا أجنحة تلحق بهل في سماء الحرية التي يعانقها أبناء افريقيا السمر. ولعل الشاعر هنا يشير إلى دور الجزائر في دعم نضال وكفاح إخواننا الأفارقة وكشهود عيان نثبت شهادة تاريخية أن جل قادة الثورة الأفريقية وعلى رأسهم الثائر الرمز نيلسون منديلا قد مروا واعتبروا بتضحيات الشعب الجزائري. وآمنوا بانتصارهم عبر انتصاره. ولعل الشاعر

أيضا قد حلق في سموات أبعد حين أشار إلى أن الثورة الجزائرية قدمت العون والدعم لأي ثائر أينما كان وذلك في قوله: "لكل من طلب الصعود جناحا"

الأوراس المحور الرابع ... الثورة والرصرص

الجزء الأول ... الانتصار والافتخار ...

واحضن مسدس كل ثائر

المدفع الرشاش في الأحضان يحفظ في المحاجر

خبئه في العينين ... في الشفتين ... في قلب الجزائر

وانصبه ... تمثالا إلها أمطر الدنيا بشائر

فسلاحنا مطر السماء وليس موتا أو مخاطر

إن خطاب الشاعر موجه مباشرة إلى كل الأحرار في هذا الوطن والوطن العربي. وليس هناك تعبير آخر يترجم حرق الشوق، ودوافع المحبة من أن يحضن الحبيب حبيبه، حين يضمه بذراعيه إلى صدره مكمن الوجد والمحبة. احضن أولئك الثوار بأسلحتهم، وما تمثله من رموز الانتصار.

"احضن مسدس كل ثائر" و "المدفع الرشاش يحفظ في المحاجر" "في العينين في الشفتين في قلب الجزائر". وهي إشارات ترمز إلى احتضان الشعب الجزائري للثورة. وكانت القوة الاستعمارية تدعي أن الثورة معزولة عن جماهير الأمة في نفس الوقت كانت السجون تعج بأبناء الشعب بلا تمييز من أجل تحطيم الأرادة العامة. إذن إن سلاحنا مصدره السماء. فهو ليس بموت أو مخاطر فيه الخير وفيه الناء – وهذا تعبير جديد–وبمعنى آخر ... إن سلاحنا ليس للقتل والتدمير كما يفعل المستعمر بل هو رمز للسلام والحياة.

تابع الجزء الأول

فلينبت الزيتون، وليزرع زهور الحب في

قلب الجزائر

وليخمر الخبز المملح بالكرامة والمفاخر

وليحرس الشطآن من ريح يحركها مغامر

يركز الشاعر في هذا المقطع على دور الثورة المسلحة في أشارته السابقة "فسلاحنا مطر السماء" إن هذه الثورة ليست قاطعة طريق، وإنا هي ثورة بسلاحها تعيد للوطن وجه الحياة وطبيعتها وبغيرها لن ينبت الزيتون رمز الديمومة الخالدة لمعنى السلام، ولن تزهر زهور الحب. وهنا حق للجزائري أن يتناول خبزه المملح بالكرامة والفخر. وهذه الثورة أو البندقية المنتصرة. هي الضمانة ... ضمانة حراسة شواطئ الجزائر من رياح المغامرين. ولعل في ذلك شارة إلى بداية دخول الفرنسيين الغادر إلى الجزائر من سيدي فرج عام 1830.

الجزء الثاني

ويحملني شوقي والحنين ...

يا طائر الأشواق ضعني قشة عند البيادر

أو عشبة منسية في عرق دالية تسامر

حتى أغني الريح والهضبات والجبل المفاخر

يتمنى الشاعر أن يحمله طائر الأشواق من فلسطين ... المصلوبة والمذبوحة والثائرة إلى الجزائر الثورة المنتصرة، ليبارك استقلالها لأن صورة الطائر مرتبطة في ذهن الفلاح عند البيادر حيث يلتقط الطير الحب منها ويريد الشاعر أن يحمله هذا الطائر إلى بيادر الجزائر بعد عودة خصبها. وذلك في لمسة شاعرية تعبر عن عمق النزعة الوطنية والقومية. إنها تلك الرغبة الجامحة عند الشاعر ليشارك الجزائر أفراحها. ولم يجد وسيلة للوصول سوى أجنحة طائر الأشواق، وفي نفس الوقت الذي يتمنى لو يحمله هذا الطائر عشبة يلقيها بين دوالي وكروم عنب الجزائر. ونرى معا التعابير ..."البيادر" و "الدوالي" و "الهضبات" و "الجبل المفاخر" وكلها تشكل أساطير في الوجود الجزائري، شعبا وارضا وثورة، لذا فرضت نفسها على الشاعر الملتزم فغناها في قصيدته هذه. وكان طائر الأشواق وسياته إليها. وهو وسيلته الرمزية في الانتقال والانتماء.

الجزء الثاني

...اوراس أولمبنا العربي ... .

يا أولمبنا العربي ... يا رب المآثر

انا صنعنا الأنبياء على سفوحك و المصائر

انا صنعناها ، وما أوحت بها أوهام ساحر

أو شاعر نسي التراب ..فراح يستجدي الخواطر

أوراس ياخبزي و ديني .. يا عبادة كل ثائر

يتربع على جبل الأولمب هيكل اغريقي قديم يرمز الى التجمع ، لدا فاستعمال أولمبنا العربي يعني حتما أن الأمة العربية ، كلها من محيطها الى خليجها قد تجمعت حول هدا الأولمب.. الأوراس.. رب المآثر وصانعها على مر التاريخ من بطولة و شجاعة و تضحية و فداء و اصرار على المقاومة ، سجلها تاريخ الأمة، حين حطمت جميع موجات الغزو على صخوره ، بالإضافة الى ما يمثله من تسامح أهله وطيبتهم و احتضانهم لكل مأثرة جليلة ... ولعل اعظم تلك المأثر التي احتضنها الاوراس هي الثورة الجزائرية برصيدها الفكري و الانساني والديني و النضال التاريخي .

ان صنعنا الانبياء و المقصود هنا هم الشهداء الدين يرتفعون الى منزلة الانبياء ، وليس المقصود حرفية الكلمة ، وانما هي كناية عن المكانة الرفيعة التي يحتلها الشهداء في قلب الأمة و ضميرها الوقاد.

ان صنعناها نحن الدين انجبنا الشهداء والمجاهدين وصنعنا مصيرنا بأيدينا ، وهدا المصير لم يكن منة من احد او لم تأتي به قصاد شعراء، بعيدين عن الالتزام الوطني فراحة تصور لهم خواطرهم ان هدا المصير تحقق ببساطة او بدون جهد او تضحية كما يزعم بعض المغرضين "اوهام ساحر" .

اوراس ياخبزي وديني .....

ان الاوراس هنا هو رمز ابدي للجانبين المادي .. الخبز.. الديني..الروحي.وهو

بهذا المعنى يشكل الحضارة التي تميز الانسان، وتربطه بوطن هو موضوع هده

الحضارة... الارض و الدين والاوراس مهد افئدة كل الثوار و الاحرار في هدا العالم.

انا فتحنا للشموس ضياءها ولكل من طلب الصعود جناحا

انا فتحنا الباب في افريقيا فتطايرت شهب اللهب رماحا

وهده توحي بعبارة.". يا عبادة كل ثائر" ولو ربطنا هدا المفهوم بعلاقة الثورة الجزائرية بثورات طلاب الحرية في العالم لوجدنا امتدادها قد اتسع ، ليشمل الثورة الفيتنامية و الكوبية و الفلسطينية ، وحركات التحرر في افريقيا ... أنغولا و الموزمبيق و جنوب افريقيا.

الجزء الرابع

افتح دراعك للجزائر

في يوم اعراس الجزائر

خيول الريح اسرجنا و علقنا المنائر

واتت عروس الشعب ترفل بالكواكب و الازاهر

خطاب موجه لكل من يحب الجزائر التي افتكت حريتها بهزيمة اعدائها ...

بنا ان نفرح ونحتضنها في يوم اعراسها. ا اعراسها التي تجلت في سقوط كل شهيد على ثراها. ا ان تجلت بالعرس الاكبر عرس الجزائر. و هو عرس الامة العربية ، وكل الوطنيين و الاحرار في العالم . ل كانت الاحتفالات بأعراس الجزائر في كل مكان في الكون من خلال تعبيره السابق.

هو الاستقلال جاء موكبه محفوفا بالكواكب و الازهار رمزا للأبطال و الشهداء و التضحيات . و قد صور الشاعر الاستقلال بعروس الشعب..

الخامس و الاخير

.. عروس الشعب .....

دفعنا مهرها... مليون ثائرة .....وثائر

وعلى صباح جبينها الوضاء اشعلنا المباخر.

.... رفا من الشهداء ليس تعيه ذاكرة المآثر

الدم المسفوح حنينا الانامل و الاظافر

عروس الشعب ... التي مهرها هدا الشعب بمليون ثائرة و ثائر .. ي من مهر أغلى من كل المهور .. ح ضحى الابناء الأوفياء بأعز ما لديهم فجادوا بأرواحهم " والجود بالنفس أسمى غاية الجود" . و يزال الشاعر يصور هده العروس "الاستقلال" بأبهى الصور فجبينها وضاح صبوح راح يبخره على عادة العرب في مباركة ظهوره..... و مازال الشاعر يتكلم عن مهر هده الغالية، وهو رفوف من الشهداء لا حصر لها ولا عد.. انها تحيط بهذه العروس في تجلياتها في محفلها، و اذا كان الناس قد اعتادوا التجميل بالحناء ؛ فان ابناء هذا الشعب الجزائري . و من ذلك نراه يشدد في قوله على هذا المفهوم حين قال في قصيدة اخرى

شمس افريقيا على أوراسها قرص اباء

وعلى زيتونها مشنقة للدخلاء 21

وماذا بعد .. هذا محمود درويش..... وهذه قصيدة الأوراس.. ورغم العذاب النفسي الذي رافقنا خلال دراستها بسبب ما حملته من ألم و أمل الا أننا لا نعتقد أن الشعر أقوى من الطائرات ، تلك التي قصفت نيرانها أبناء الشعب الجزائري ظلما و عدوانا ... و لكننا على يقين أن الطائرات و آلات الدمار لا تستطيع ان تقتل القصائد. ا نها الحرب الدائمة بين القوة الروحية للإنسان المؤمن بقضيته، وبين القوة المادية في الفتك و الدمار. فبالمعنى التاريخي أصبحت القصيدة أقوى من الطائرة ، ولكن بمعنى المواجهة الحرفي لا نستطيع أن نقدم مقارنة الا أن الحقائق على الارض تصرخ بحقيقة الانتصار الابدي ... كانت هذه رؤية الشاعر التي تتلخص بدم على الطرقات و في كل الحدائق و على مرايا العالم حين أخذت شكل المذبحة . وكانت الضحية مطالبة دائما اثبات براءتها مما وصلت اليه آلة الجلاد، ولا قاض الا الموت. فهل استطاع الوطن ان يملك الحرية أو يموت كما يشاء؟. ان

الموت .... إن الشهادة هي الهوية التي يقدم بها الوطن نفسه إلى العالم ، لذلك كان موقفه هو الاختيار ..فاختار و انتصر . و هنا أصبحت رسالة الشاعر أقرب ما تكون إلى الرِيا الكاشفة لمسيرة المستقبل ، و في تعليق له على هذا المفهوم يقول ..،، سنعرف الآن أن الشعر هو رؤية ثورية للحاضر ، و رؤية للمستقبل ، و لماذا نكتب ؟ لأننا جديرون بانتمائنا إلى الحياة و بحاجة إلى الإحساس الدائم بهذه الجدارة،،.

لقد صبغ هذا الموقف الكاشف أشعار "محمود درويش" و موافقه من منطلق ال صبغ هذا الموقف الكاشف أشعار "محمود درويش" و موافقه من منطلق الالتزام الذي شمل كافة إبداعاته تجاه الوطن و قضايا الأمة ، عبر الصراع المرير الذي خاضته لإثبات الذات ... التي أصبحت في ظل الاحتلال و الاستيطان قضية حياة أو موت . فالأوراس هذه القضية السردية التسجيلية ، استطاعت بنظرنا تسجيل الأحداث بما فيها من ظلم و ظلام ، و قسوة و تنكيل و دم و دموع لا فرق بين أبناء الأمة أمام جبروت المحتل الذي مات ضميره فأصبح جلادا .

و بما فيها من انتصارات و أفراح و عبر و دروس و أعراس و هي القضايا التي أصبحت بنظرنا توحد أبناء الأمة في الحدث و المصير . و في كلمة أخيرة لا يمكن لنا فصل حيثيات القصيدة عما يجري في الجناح الآخر من وطن الأمة .. في فلسطين التي أسرت في غفلة الصراع الدولي العنيف ،و مازالت تشهد بشهدائها و آلام اهلها بوضوح و تحت الشمس و لا مجيب . لقد كثرت القضايا و تعددت التفاصيل , إلا أن الشاعر الملتزم بقضايا أمته حين عبر كان لسان أبنائها أنفسهم و ضميرهم الوقاد . و تبقى الجزائر و تبقى فلسطين تغنيهما قصائد التاريخ مكللة بأغصان الزيتون و النصر و تنشد الأهازيج أيام الأعياد احتفالا بعودة الوطن إلى أهله و عودة الغرباء لأحضان أوطانهم.

و هكذا تصبح

قصائدنا بلا لون

بلا طعم ..بلا صوت

إذا لم تحمل المصباح من بيت إلى بيت

و إن لم يفهم ،، البسطاء ،، معانيها

فأولى أن نذريها

و نخلد نحن للصمت ... 22

هوامش الدراسة

1- محمود درويش ، الديوان ، بيروت ، دار العودة ، 1971 ،ص134

2- انظر، مجلة اللوتس، ع 165 ، تونس، 1988، ص 255

3- الديوان ...، ص 133 .

4- انظر ، اللوتس ، 252 .

5- نفسه .

6- الديوان ، عاشق من فلسطين ،بيروت ، دار العودة ، 1971 ، ص 298 .

7- نفسه ، المقدمة .

8- نفسه ، عصافير بلا أجنحة ، بيروت ، دار العودة 1971 ، ص 143 .

9- نفسه، المقدمة .

10- جميل البرغوثي ، أزمة الشعر المحلي ، القدس ، 1979، ص 43 .

11- الديوان ، 45 .

12- نفسه ، أوراق الزيتون ، ص 218 .

13- انظر ؛القصيدة ، الديوان ، "أوراق الزيتون"، بيروت ، دار العودة ، 1946، ص 211 .

14- نفسه ، ص 220 .

15- سميح القاسم ، الديوان ،، مجموعة آخر الليل ،،

16- محمود درويش ، الديوان ، أوراق.....، ص 211.

17- أوراق الزيتون ، ص 53 .

الدكتور نواف أبو ساري*محمود درويش ، قراءة في قصيدة الأوراس*

18- نفسه .

19- الديوان .. احبك أو لا احبك ، ص 73 .

20- الديوان ،عصافير بلا اجنحة ،ص 53 .

21- نفسه ص 138 .

22– الديوان أوراق الزيتون ، ص 198 .